

شهر رمضان.. ضيافة ا



قال رسول ا (ص):

"أيها الناس إنّه قد أقبل إليكم شهر ا بالبركة والرحمة والمغفرة شهر هو عند ا أفضل الشهور وأيامه أفضل الأيام ولياليه أفضل الليالي وساعاته أفضل الساعات هو شهر دعيتم فيه إلى ضيافة ا وجعلتم فيه من أهل كرامة ا أنفاسكم فيه تسيح ونومكم فيه عبادة وعملكم فيه مقبول ودعاؤكم فيه مستجاب فاسألوا ا ربكم بنياتٍ صادقة وقلوب طاهرة أن يوفقكم لصيامه وتلاوة كتابه فإن الشقي من حرم غفران ا في هذا الشهر العظيم..".

قاعدة اللطف الإلهي شاملة لنواحي الحياة الطبيعية والفكرية والشخصية والنفسية والسلوكية في العناية الإلهية العامة بعباده فتشمل جميع أنواع الرحمة والعطف والرزق لعموم المخلوقات وتشمل أيضاً جميع التسهيلات الربانية في الطاعة والعبادة فقد قال سبحانه وتعالى: (وَلَا كُفْرًا بِاللَّهِ وَرَبِّهِ إِلَّا بِالْحَقِّ يُدْعَى إِلَى الْإِيمَانِ وَرَبِّهِ نَدَاهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَهُ إِلَّا لِيُكْفِرَ الْكُفْرَ وَالْأَفْسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاكِدُونَ) (الحجرات / 7)، وقال النبي الأكرم (ص): "جئتم بالشريعة السمحة السهلة" فأذن ا عز وجل يوفّر للإنسان نعماً شخصية وخارجية وعلى كافة المستويات ويوفّر له أيضاً مناخاً إيجابياً للإيمان والإخلاص والتوبة والاستقامة فهو مسبب الأسباب والداعم بالغيب لذلك نقرأ في الأدعية - اللهمّ عاملنا بلطفك ولا تعاملنا بعذلك - وبالفعل أطفاف ا شاملة لجميع المخلوقات فمن أطفافه على النباتات - مثلاً - هذه الكائنات الحية الواقفة في مكانها أن تمتص بواسطة جذورها من أملاح الأرض وبالإستفادة من نور الشمس والهواء تحصل على الغذاء بينما الحيوانات بما أنها تستطيع أن تتحرك وتمشي إذن لتنتقل من مكان لآخر طلباً للغذاء سواء كان نباتياً أو حيوانياً المهم أن الحيوان لا يحتاج إلى عملية التركيب الضوئي لصنع الغذاء في داخله وليس من المناسب أن يكون ذلك على عكس النبات.. وعلى أثر ذلك لابد من توفير صفات خاصة بالحيوانات لتكون من الأسباب الداعية لاستمرارها في الوجود وهذه الصفات هي أيضاً من أطفاف ا سبحانه فالكلب وفي والأسد شجاع والغزال ذكي والدجاج نافع وهكذا.. فصفات هذه الحيوانات تكون سبباً رئيسياً للحصول على الغذاء والمسألة موزعة بعدالة تامة.

ومن لطف ا أن تنعّيش هذه النباتات والحيوانات أي الكائنات الحية الثابتة والمتحركة بنظام دقيق في داخل كياناتها ترتبط فيما بينها على أساس المنفعة والخدمة ويأتي الإنسان لكي يعيش عليها فهو بعقله وذكائه يستطيع أن يسخر النباتات والحيوانات بل الطبيعة بأسرها في خدمته فالعقل الإنساني هبة ا الكبرى للبشر من أبرز أطفاف ا للإنسان فيه يستطيع أن يميز بين الحقّ والباطل ففطرة الإنسان تحمل أمهات الفكر المساوي يقول عز وجل: (فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ) (الروم / 30)، وقال أيضاً: (وَلَا تَلَّيْنِ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ

وقال [] سبحانه كذلك: (وَلَقَدْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْحَا بِهَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لِيَقُولُنَّ اللَّهُ... (العنكبوت/ 63). هذه الفطرة الطبيعية لدى الإنسان هي من أطاق [] تعالى ومن ثم إرسال الرسل وبعث الأنبياء (عليهم السلام) والكتب المقدسة لهدايتنا وقد يسر لنا معرفة أحكام الدين وطريق الخلاص والنجاة. وقد جاءت كتب السماء تتويجاً للفطرة الإنسانية النقية.

حجة [] على العباد النبي والحجة فيما بين العباد وبين [] العقل فالعقل هو الهدية الإلهية العظمى للإنسان فلولاها لما استقام إنسان على دين ولا آمن برسالة يقول الرسول الأعظم (ص): "قوام المرء عقله ولا دين لمن لا عقل له" وهكذا فإننا نجد في كل شيء في الوجود لطف إلهي واضح ومثال على الطبيعة مثلاً الهواء فإنه يتكون من عدة عناصر بنسبٍ محدودة فمثلاً الأوكسجين نسبته في الحالة الطبيعية 21% فلو صعدت النسبة إلى 30% أو نزلت إلى 10% لارتبكت الحياة على الأرض لأن الإنسان والحيوان والنبات كلٌ منهم يعتمد عليه لأجل البقاء. ومن خواص الأوكسجين إنّه يساعد على الاشتعال فلو صعدت النسبة لاشتعل المكان الذي تظهر فيه شرارة عود الكبريت.. بينما تتدخل أطاق [] التي لا تحصى ونعمه التي لا تعد بتثبيت النسبة وليستفيد النبات من ثاني أوكسيد الكربون المفلوظ من قبل الحيوانات ولتستفيد الحيوانات من الأوكسجين للتنفس.. في علاقات تبادل المنفعة فيما بين الكائنات وكذلك الحالة التكاملية في الطبيعة متزنة بميزان دقيق الواحد يخدم الآخر بحدود معينة سبحانه الخالق الكريم حيث يقول: (وَالسَّمَاءِ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ) (الرحمن/ 7)، وقال في سورة البقرة، آية 164: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبِحَارِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَنْحَا بِهَ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ).

وقاعدة اللطف الإلهي هذه تتناول الحياة السلوكية للإنسان أيضاً [] سبحانه ما خلقنا عبثاً وإنما لغاية شريفة فهو القائل جلّ وعلا: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) (الذاريات/ 56)، وقال أيضاً: (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعْبَادِينَ) (الأنبياء/ 16).

وشرّح [] للناس العبادات من صلاة وصيام وحج وزكاة ووضع العقوبة المناسبة للمخالفين والمسئئين وقانون الحدود والتعزيرات للمعتدين والأثمين لغرض ضمان الاستقامة بالحياة ورفع الظلم والحيث.. وبالنسبة للعاصمين يعطيهم [] أملاً متجدداً بين أونة وأخرى بالتوبة الصادقة وخاصة في هذا الشهر العظيم الذي يمكن أن نجد البيعة من [] سبحانه في العبادة المخلصة في هذا الشهر الكريم من صيام وصلاة والتزام بالسلوك الإيماني وهذه القاعدة المباركة نطمح أن تشملنا بعنايتها في الدنيا والآخرة.

ومن أطاق [] إنّه سنّ لنا العبادة وأوضح لنا التوبة من الذنوب وشهر الصيام من أطاق [] عزّ وجلّ فإنّه متميز تماماً عن بقية الشهور وكما قلنا أنّ أيام الصيام هي مرحلة تطهير الإنسان من الذنوب العالقة طيلة أيام السنة فإنّ مغناطيسية الدنيا تسحب الإنسان نحو الهوى وتنسيه من التفكير الإيجابي لأنّ آفة الإنسان النسيان فيأتي الصيام ليعيد التذكرة الإيمانية للإنسان والمجتمع فتحرق الذنوب وفي الأثر المقدس "من صام شهر رمضان إيماناً واحتساباً غفر [] ما تقدم من ذنبه".

وفي هذا الشهر هنالك الامتيازات للصائم والمصلي والعابد كلّها من أطاق [] سبحانه فلندخل الآن بعد هذه المقدمة إلى صميم الموضوع - وبودّي أن أتناول خطبة الرسول الأعظم (ص) مقطعاً مقطعاً علنا نستفيد منها في هذا الشهر العظيم في زمن الأزمة الخلقية والأزمة النفسية فهذه الخطبة المباركة تعدّ وثيقة تربوية خلقية للمسلمين وضعها الرسول الأعظم (ص): (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى) (النجم/ 3-4).

فإلى المقطع الأوّل من هذه الخطبة الرائعة.. "أيها الناس إنّه قد أقبل إليكم شهر [] بالبركة والرحمة والمغفرة شهر هو عند [] أفضل الشهور وأيامه أفضل الأيام ولياليه أفضل الليالي وساعاته أفضل الساعات...".

أيها الناس نداء عام لكلّ المجتمع فإنّ الدعوة مفتوحة للجميع بماذا؟ بزمّن كريم متميز أقبل إليكم فتهيئوا له نفسياً هذا الزمن منسوب إلى [] عزّ وجلّ فهو شهر [] يمتاز بالبركة والرحمة

والمغفرة فهو مبارك بالنعم ومتميز بالخيرات ورحمة إلهية عامة للصائمين لتسهيل الفريضة ومدّ الصائمين بالقوة والصبر وأيضا هنالكَ مغفرة وتجاوز للذنوب والمعاصي الماضية للصائم وذوي العلاقة به من الأموات والأحياء فإِ سبحانه معطاء كريم نقرأ في الدعاء "يا من يعطي من سأله ويا من يعطي من لم يسأله ومن لم يعرفه تحننا منه ورحمة...".

وفي هذا الشهر المتميز على الشهور الأخرى فالعطاء أكبر والمغفرة أوسع فهو عند إِ أفضل الشهور وأيامه أفضل الأيام بل وساعاته أفضل الساعات هذه الأفضلية في المنظار الإلهي واضحة المعالم وسببها لأنّ هذا الشهر يحتوي فريضة الصيام أو لإنزال الكتب المقدسة فيه، المهم أنّ إِ سبحانه أراد لهذا الشهر هذه الأفضلية المعطاءة.. هو شهر دعيتم فيه إلى ضيافة إِ وجعلتم فيه من أهل كرامته. إِ ما أجمل هذا التعبير الدقيق بالفعل إننا مدعون لضيافة إِ ونحن في طريق تلبية دعوة الخالق الكريم نتساءل ألسنا نحن في كلّ الحالات في ضيافة إِ فهذه النعم وهذه البركات والقدرات على الانتفاع من الطبيعة في الاستهلاك للأكل والشرب والتنفس... هل من زيادة على هذه الضيافة؟ أجل إنّها ضيافة من نوع جديد لا كما نفهم عن الضيافة نحن في الأكل والشرب والمشى على الأرض ضمن ضيافة عامة وإنما هنالكَ ضيافة خاصة للصائمين والمؤمنين وأكثر من ذلك جعلنا من أهل كرامة إِ في هذا الشهر الكريم أما عناصر هذه الضيافة وألوان العطاء الرباني يحدثنا الرسول عنها "أنفاسكم فيه تسبيح ونومكم فيه عبادة وعملكم فيه مقبول ودعاؤكم فيه مستجاب" هذه الضيافة خارجة عن فهمنا الطبيعي إنّها إعداد جزيل للدار الآخرة التي تشكل الطموح الحقيقي للإنسان المؤمن فالأنفاس الصاعدة والنازلة - في هذا الشهر تحسب تنزيهات إِ أي تسبيحات تسجل في سجلات المؤمنين تسبيحات الصائمين ولها أجرها الكبير. والنوم في هذا الشهر يحسب عبادة والعمل فيه مقبول والدعاء لنفسه أو للآخرين مستجاب.

فعلاّ فرصة نادرة في الحياة ولا بدّ من اغتنامها، هل لاحظتم تنزيلات وتخفيضات في السلع التجارية كيف يتهافت الناس لاستغلال الفرصة؟ بالفعل شهر رمضان تخفيضات للشروط بشكلٍ واضح فلا خيار أمام المؤمنين إلا اغتنام الفرصة "فاسألوا إِ بنيات صادقة وقلوب طاهرة أن يوفقكم لصيامه وتلاوة كتابه فإنّ الشقي من حرم غفران إِ في هذا الشهر العظيم" القصد الصادق التوجه إلى إِ بصدق النية وبقلب خالٍ من الأدران والآثام لأجل التوفيق الإلهي للصيام وقراءة للقرآن فالمؤمن بحاجة إلى التوفيق من اليد الإلهية الغيبية لتأدية الواجبات الشرعية، وفي الحديث "المؤمن يحتاج إلى ثلاث خصال: توفيق من إِ وواعظ من نفسه وقبول ممن ينصحه" وهذا التوفيق يحصل لدى الإنسان صافي النية وطاهر القلب. أما الشقي أي التعيس وغير السعيد فإنّه سيجرم من مغفرة إِ ورضاه في هذا الشهر العظيم فلعظمة العطاء وتسهيل رضي إِ في مناخات إيمانية مهيئة للتوبة والاستغفار والاستقامة وللضيافة المفتوحة والتمتيزه بالفعل أنّ الذي لا يستفيد من هذه الفرصة الذهبية يعد من الأشقياء.

وهكذا يعتبر الإسلام شهر رمضان موسماّ بادياّ خاصاّ فلا بدّ من التعامل معه بصدق وإخلاص وتفاؤل وانسجام كي تتم الفائدة المرجوة في الدنيا والآخرة بينما الذي نشاهده وللأسف لدى شريحة من المجتمع وربما الشريحة الكبرى طاهرة الازدواجية في الشخصية بشكلٍ واضح فيمارس الدورين دور المتقي الصائم ودور انحرافي في السلوك بشكل ملموس وليس هذا مجال حديثنا وإن كان من اهتماماتنا الأساسية - فنلاحظ أمام النشاط الديني تنشيط الشياطين أيضاّ لتأخذ قسطاّ من وقت الصائمين للأسف! فتلهيهم في ليالي اللعب والسهر العاثر.. هذه الحالة ربما تتكرر في كلّ يوم ففي النهار صيام وتلاوة قرآن أي ساعات رحمانية بينما في المساء تكون الساعات شيطانية.. وربما تظهر الازدواجية هذه في مظهر أفضل وذلك استمرار الساعات الرحمانية في أيام رمضان وبمجرد أن ينقضي هذا الشهر الكريم تنطوي الحالة المقدسة وتعود الحالة التي سبقت شهر رمضان وكأن لم يكن شيئاّ مذكوراّ دون أن يستفيد من هذه المحطة الربانية خارج شهر رمضان وبعض الناس بسلوك غريب جداّ يتصور نفسه كالطفل فيفرح لحلول الشهر المبارك كما يفرح الأطفال ويعد معدته بالأكل والشرب فيحضر ويدعو أيضاّ لحفلات الطعام المترف والمتنوع ويتوج فرحته في يوم العيد كالأطفال بالضبط ومن المؤكد إنّّه غير مرتاح نفسياّ ووخز الضمير يؤنّب على هذا السلوك دوماّ.

وبعض الصائمين لا يجروّ أحد أن يتكلم معه لسوء خلقه في هذا الشهر لأنّه صائم فلا أُمّه ولا زوجته ولا ابنه يستطيعون التحدث معه خاصة بعد الظهر.

وأظن أنّ هذه نتائج طبيعية تظهر للعيان عند غياب المعرفة الحقيقية لهدف الصيام أما بعض المفطرين والعاثين نراهم يتخاصمون على هلال العيد ويوم العيد ووقت الإفطار أكثر من الصائمين يبدو لسد نقصهم يقول الشاعر:

شباب طائش نرق *** وشيب ما بهم رفق

وشعب طالب ثقة *** فدلوه بمن يثق

هذه صورة من ازدواجية في شخصية المسلم المعاصر من الطبيعي أن الصحو الإسلامية اليوم قد أظهرت الحقيقة وحالة الازدواجية متقلصة أمامها والذي يبحث عن الحقيقة يجدها .

والتذرع بسلوك الآخرين المنحرفين كتبرير لانحرافنا غير نافع وإنما لابد للإنسان بنفسه أن يطهر داخله وأفضل فرصة في هذا الشهر العظيم فباطن الإثم يخلق حالة الازدواجية ففي لحظات الإيمان والطاعة تتوفر النيات الصادقة في الوقت ذاته تطهر القلوب من تراكمات الماضي والسؤال كيف نستطيع أن نمدد هذه اللحظات الإيمانية؟ بهذه النيات الصادقة والقلوب الطاهرة من الأغلال والآثام إلى تمام شهر رمضان بل لتمام أيام السنة بمعنى آخر نحوّل هذا الخلق النبيل والطهارة القلبية إلى ملكة مترسخة في ذواتنا متخلصين من أمراض النفس وحالة الازدواجية والإثم الباطن وهذه بعض النقاط التي تخص موضوعنا:

أ) التعرف على أسباب حصول النية الصادقة والعوامل المؤثرة فيها والفوائد التي يجنيها من النية الصادقة، فالتوجه إلى الله بإخلاص للعبادة والصوم بالذات في هذا الشهر والطمع في مغفرته وعفوه وكذلك المحاسبة الدائمة للنفس وتلقين بالمحاسبة الإلهية الدقيقة لكل الأعمال الصالحة والطلحة ففي هذا الشهر أنفاس الملتزمين تسبيح ونومهم عبادة وعملهم مقبول..

بالنتيجة هذه المحاولة الجادة تستهدف إيجاد المناخ المناسب لهذا الصفاء فلا بد من استمرار النية الصادقة بمعرفة الأسباب والعوامل المؤثرة والفوائد المجنية - وهذا المناخ الإيماني يمكن إيجاده بشكل أو بآخر في أيام السنة الأخرى ولهذا نلاحظ التأكيدات في الشريعة على استحباب الصيام في شهر رجب وشعبان. فكلما نرى الشياطين في حالة تأهب لافتراسنا لابد أن نلجأ إلى الصلاة والصوم وقراءة القرآن والأدعية اليومية.

ب) قراءة السير وعواقب الأثم في القرآن الكريم وقصص الصالحين والأنبياء أي دراسة عواقب أمور الناس - والسعيد من اعطى بتجارب غيره - لاكتشاف الحكمة من الاستقامة والالتزام - هذا لنوع من الدراسة الواعية تتيح للإنسان المؤمن ديمومة النوايا الصادقة والقلوب الطاهرة بل وحتى في قصص المنحرفين نأخذ العبر منهم. وفي الأثناء يُنقل أن تاجراً كبيراً طرقت على باب مسكين وطلب العون منه صرخ في وجهه فالتفت المسكين مخاطباً التاجر أما تخاف أن تصيح مثلي وإن الله قادر على ذلك فصرخ به أيضاً قائلاً لو أراد الله أن يفكر لأصير مثلك لاحتاج إلى تفكير سنتين! وبالفعل إن الله عند المنكسرة قلوبهم.. وفوراً يأتي الخبر بأن ابن التاجر مع ابن الملك كانا في رحلة صيد وبالخطأ يسد ابن التاجر سهمه ليضرب الفريسة فيقتل ابن الملك الوحيد فيتهستر الحاكم ويصادر أموال التاجر المنقولة وغير المنقولة ويطرد من محله التجاري ليعبر الشارع ويرى المسكين فيقول له إن الله لا يحتاج إلى تفكير سنتين لتحويل الغني إلى الفقير.